العلاقة بين النقل والعقل

حدّثه غريب بتاريخ الخميس 11 ذي الحجة ١٤٤٢

لقد كفر إبليس بسبب تقديم عقله على أمر الله عز وجل، فقد رأى أنه خير من آدم، ولذلك له أن يعصي أمر الله له بالسجود لآدم.

إنما قام به إبليس، يقوم به كثير منا، ولو بطرق مختلفة، حيث أنه يجعل العقل حَكما على النص كما سنرى، ولو نوقش في الموضوع لقال أن العقل هو مناط التكليف، والله خاطب العقل في آيات كثيرة، ولذلك من الشطط إقصاء العقل نهائيا أمام النص.

إن هذه الشبهات تجعل من تحديد العلاقة بين النقل والعقل حاجة ماسة، حتى نعرف الحدود التي على العقل أن لا يتجاوزها ليبقى المرء على الصراط المستقيم

هذه العلاقة هي التي سوف نناقشها من خلال المحاور التالية:

- النقل يخاطب العقل
- حد سمعنا وأطعنا
- عندما تعدينا حد سمعنا وأطعنا

النقل يخاطب العقل

إن العقل شرط التكليف، والوحي يخاطب العقل بالأدلة والبراهين التي يفهمها، فقدم الأدلة الواضحة أنه لا إله إلا الله وأن القرآن كلام الله في كثير من الآيات منها على سبيل المثال لا الحصر:

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبّي وَرَبُّكُم فَاعبُدوهُ هذا صِراطٌ مُستَقيمٌ﴾ [آل عمران: ٥١]

وقوله سبحانه

﴿تَبارَكَ الَّذي نَزَّلَ الفُرقانَ عَلى عَبدِهِ لِيَكونَ لِلعالَمينَ نَذيرًا۝الَّذي لَهُ مُلكُ السَّماواتِ وَالأَرضِ وَلَم يَتَّخِذ وَلَدًا وَلَم يَكُن لَهُ شَريكٌ فِي المُلكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيءٍ فَقَدَّرَهُ تَقديرًا۝وَاتَّخَذوا مِن دونِهِ آلِهَةً لا يَخلُقونَ شَيئًا وَهُم يُخلَقونَ وَلا يَملِكونَ لِأَنفُسِهِم ضَرًّا وَلا نَفعًا وَلا يَملِكونَ مَوتًا وَلا حَياةً وَلا نُشورًا﴾ [الفرقان: ١-٣]

كما قدم الأدلة على أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم, بحيث لا يكون للعقل البشري مفر من التسليم لله عز وجل إلها واحدا, ويقر بصدق نبوة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وأن كل ما أخبر به من عند الله عز وجل, سواء كان بين دفتي المصحف, أو كان ما صح عنه خارج المصحف, فإذا اقتنع الإنسان بما سبق, ولا يمكنه غير الاقتناع نظرا لقوة الأدلة ووضوحها – لا يبقى له إلا خيارين:

إما أن يستكبر ويكفر, كما هي حال أغلب البشر, وساعتها يواصل رحلة التيه في الظلمات, ليس له من هاد سوى الهوى الذي يغلفه بزخرف القول غرورا.

وإما أن يذعن لما سبق, ويسلم لله رب العالمين, وساعتها تتحول العلاقة بين العقل والنقل من علاقة تشكيك في مصداقية النقل حتى تثبت, كما ورد في قوله سبحانه

﴿وَإِن كُنتُم في رَيبٍ مِمّا نَزَّلنا عَلى عَبدِنا فَأتوا بِسورَةٍ مِن مِثلِهِ وَادعوا شُهَداءَكُم مِن دونِ اللَّهِ إِن كُنتُم صادِقينَ﴾ [البقرة: ٢٣]

إلى علاقة تسليم, يسلم فيها العقل للنقل بشكل مطلق, حيث يقتصر دور العقل على فهم الأوامر الصادرة من رب العالمين لينفذها المرء حرفيا كما أمر, ودليل ذلك قوله سبحانه:

﴿وَاذكُروا نِعمَةَ اللَّهِ عَلَيكُم وَميثاقَهُ الَّذي واثَقَكُم بِهِ إِذ قُلتُم سَمِعنا وَأَطَعنا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَليمٌ بِذاتِ الصُّدورِ﴾ [المائدة: ٧]

حد السمع والطاعة

إن المسلم الذي أسلم نفسه لله ليس له غير السمع والطاعة وحسب, أي أن دور العقل عنده يقتصر على فهم النص كما هو, ليطبقه كما أمر من غير زيادة أو نقصان أو تحريف

إن اقتصار دور العقل أمام النقل على الفهم وحسب, ليس فقط ضرورة إيمانية, وإنما هو أيضا ما يقوله العقل نفسه, فليس من العقل في شيء أن نملي على الله ما عليه أن يقوله, أو نشترط عليه أن يكون وحيه خاضعا لمنطقنا البشري, كل ذلك ليس من العقل في شيء بحسب المنطق نفسه, لأن منطقنا مخلوق كعقولنا, والمخلوق ليس له من الأمر شيء, وإنما عليه أن يتصرف وفقا لإرادة خالقه, لا أن يملي على خالقه ما عليه أن يقول أو يفعل.

عندما تجاوزنا حد السمع والطاعة

إن تجاوز هذا الحد, أي فهم النص, هو بداية الضلال والزيغ, لأنه تعد لحدود الله عز وجل, وهو أيضا تحميل العقل ما لا يطيق, فالعقل مخلوق كبقية مخلوقات الله له ميدان عمل إذا تجاوزه سيأتي بالطوام ولابد, مثال ذلك الذين جعلوا عقولهم – ولو لم يشعروا – حكما على النص بحيث أخضعوا النص للمنطق البشري, هذا الاعتداء دفعهم للكفر ببعض النصوص حتى يوفقوا بينها وبين نصوص أخرى في عقولهم, من ذلك كفرهم الصريح بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب بنفسه.

الحديث وتخريجه ورواته تجده هنا.

لأنه يتنافى بحسب عقولهم مع نصوص أخرى تثبت الإيمان لمن لم يكن بهذه الصفة, فقالوا بل هو مؤمن ولو لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه, والنفي هنا نفي كمال, وأضافوا مضافا محذوفا قدروه بقولهم لا يؤمن أحدكم إيمانا كاملا حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

وهم بفعلهم هذا لا يكفرون بهذا الحديث وحسب, بل إنهم يتعدون ذلك بالطعن المبيت في بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث أنه قال كلاما مشكلا بزعمهم, وأنه لا يريد معنى ما قال, لذلك أضافوا ما أضافوا لكي يتضح المعنى بزعمهم.

إن هذا الكفر الصريح إنما دفعهم له تعد حدود الله التي حد لهم، فالله لم يكلفهم بإخضاع النصوص لمنطقهم البشري أصلا، وإنما كلفهم بالسمع والطاعة وحسب، ولو أنهم اقتصروا على السمع والطاعة لكان خيرا لهم أشد تثبيتا، كما أخبر ربنا عز وجل.

لقد فهم الصحابة رضوان الله عليهم هذا الأمر، فلم يسعوا إلى الجمع بين النصوص لإخضاعها للمنطق البشري، وإنما آمنوا بالكتاب كله دون تفريق ففازوا فوزا عظيما.

بينما ظهر في العصور التي بعدهم من يحرف الكلم عن مواضعه، ويتعدى حدود الله عز وجل، فإذا أتى الأمر صريحا بيّنا من عند الله، تراه بدل السمع والطاعة يبحث فيما لم يؤمر به، فيبدأ بطرح السؤال :

لماذا أمر الله بهذا الأمر ؟!

وهذا السؤال جائر، ولا شك لأن الله لم يكلفنا بطرحه، ولم يأذن فيه أصلا، وإنما تعدينا حدود الله التي حد لنا – السمع والطاعة – بطرحنا له، ثم واصلنا رحلة التيه في البحث عن جواب له، ولا يمكن أصلا أن نجد له جواب، لأن عقولنا قاصرة عن معرفة ما أراد الله بهذا الأمر ما لم يخبر به سبحانه، وهنا تبدأ الفرقة، فزيد يرى أن السبب هو كذا، وعمر يرى أن السبب هو أمر آخر، وكلاهما مخطئ حتما، لأن كلاهما يتحدث بغير هدى من الله عز وجل، ولقد بين الله هذا المعنى في قوله سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَستَحيي أَن يَضرِبَ مَثَلًا ما بَعوضَةً فَما فَوقَها فَأَمَّا الَّذينَ آمَنوا فَيَعلَمونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَبِّهِم وَأَمَّا الَّذينَ كَفَروا فَيَقولونَ ماذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثيرًا وَيَهدي بِهِ كَثيرًا وَما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الفاسِقينَ﴾[البقرة: ٢٦]

فالله عز وجل حين يضرب مثلا في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، تنقسم الناس إلى قسمين:

المؤمن يعلم أنه الحق من ربه ويسلم له ويزيده إيمانا, بين الكافر المعاند يبدأ بالبحث عما لا سبيل لمعرفته, وهو ماذا أراد الله بهذا المثل, وقد بين ربنا أنه سبحانه يهدي به كثيرا وهم المؤمنون, ويضل به صنف من الناس بينهم في قوله :

‹الَّذينَ يَنقُضونَ عَهدَ اللَّهِ مِن بَعدِ ميثاقِهِ وَيَقطَعونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يوصَلَ وَيُفسِدونَ فِي الأَرضِ أُولئِكَ هُمُ الخاسِرونَ› [البقرة: ٢٧]

وعهد الله وميثاقه معنا هو كما ذكرنا سابقا في قوله:

‹وَاذكُروا نِعمَةَ اللَّهِ عَلَيكُم وَميثاقَهُ الَّذي واثَقَكُم بِهِ إِذ قُلتُم سَمِعنا وَأَطَعنا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَليمٌ بِذاتِ الصُّدورِ› [المائدة: ٧]

فحين نتعدى السمع والطاعة, ساعتها حتما ولابد ستكون الآيات سببا في ضلالنا بدل هدايتنا كما بينت الآيات السابقة.

في بحثي حول القياس ضمنت مثالا عمليا وقعت فيه الأمة حين تجاوزت حد السمع والطاعة أنصح بالرجوع إليه

قد يقول قائل لقد أمرنا بتدبر القرآن, وهذه الأسئلة نطرحها لنتدبر من خلالها, فله أقول التدبر الذي أمرنا به مجاله نحن, بمعنى أن المتدبر يطرح أسئلة مثل ماذا يترتب علي أنا جراء هذه الآية مثلا, وليس مجاله ما لادخل للعقل فيه أصلا, كالسؤال عن مراد الله خارج النص, أو ضرب النصوص بعضها ببعض, لأن هذه الأسئلة تنبع من مرض القلب وليس من الإيمان لأنها تبحث فيما ليس للعقل أن يبحث فيه.

بسبب تعد حدود الله التي حد للعقل ظهرت أديان جديدة ابتدعها واعتنقها المعتدون, كل يبتدع دينا يوافق منطقه وعقله, ثم لا يلبث أن يكتشف أن دينه الذي ابتدع متناقض مع نفسه, فيزيد فيه ويعدل باستمرار, كما هي حال المتمذهبة عموما, فتجدهم بعد أن اتفقوا على مسألة ما, يختلفون

عليها من جديد لأن أحدهم أدرك بعقله أمرا جديدا, ثم بعد فترة يظهر قول جديد وهكذا حتى تكون في المسألة الواحدة عند أهل المذهب الواحد عدة أقوال متناقضة تماما, وهذا تمتلئ منه كتبهم, والسبب هو تعد حدود الله, وقد قال ربنا

﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدودَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الظّالِمونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.